21

صباحات بيت حنينا

بيت حنينا هذا الاسم الحنون الذي يثير الحنين! يتعذر لفظها على غير العرب، بالحاء التي تأتي من عمق الحنجرة لتعبّر عن مشاعر السكينة والألم في الحين ذاته. حاء حبيبي، حواء، وحرب...

غرفتنا الصغيرة في شقة ساري، تطلّ على منور داخلي في الطابق الأرضي من البناية، نافذتنا تقابل نوافذ جيراننا. هنا، كما في البلاد العربية، يحاذي الجيران بعضهم البعض. يحاذي، فعل يأخذ تمامًا معناه هنا بل يذهب أبعد من معناه. حاذَاه: وازاه وصار مقابلًا أو موازيًا له، أي اقترب على نحو ما، ونحن بالفعل نقترب من بعضنا البعض وتختلط حياتنا ولدى كل منا كلمته فيما يخص الآخر! جيران فلسطينيون، ياللسعادة! نشكل نسيجًا اجتماعيًا واحدًا ومتضامنًا أنغمر فيه وأنا أدرك كم أنّ ذلك مؤقت!

في الصباح الباكر وحين يستيقظ الجميع، نسمعهم جيراننا ويمور شيء ما في داخلي، لا شيء استثنائيًا حقًا فيما يتناهى لي، إنها بكل بساطة جلبة الحياة اليومية من أصوات قرقعة صحون وأولاد يبكون أو يتصايحون وأم تنادي أب فيردّ... كل ذلك على إيقاع ضجيج آت من تلفزيون أو راديو. يكفيني هذا لأحيا واقعهم، لأشعر بقربهم، دنوهم الشديد مني وهم يعيشون حياتهم بكل لحظاتها ليلًا ونهارًا. أحسّ بوجودهم، أسمعهم جيراني الفلسطينيين فتغمرني مسرّة، ويكبر احساسي الوطني، وأندفع بزخم وبخفة أكبر نحو مهامي اليومية. وأقترب من أنيس لأسأله:

– إذًا، أنيس الصامت الصغير، ما رأيك بكل هذا؟

– ولكن ماما، لا أعرف. اتركي لي بعض الوقت!

وأجيبه بحنان:

– الوقت يا ولدي، يمر... وكما تعرف فهو، وقريبًا جدًا، لن يعود كافيًا لنا!

بيد أن أنيس لا يفصح عما في نفسه، يتحصن خلف ملاحظات طارئة من نوع "العمارة مبنية جيدًا، الطقس لطيف حقًا، أحب السكاكر هنا...". هذا أفضل! قد لا أستطيع هنا التعامل مع أسئلته الوجودية التي ستضاف إلى أسئلتي. لعله أيضًا بطريقته تلك، سيساعدني على رؤية الأشياء بمنظار مبسّط.